# المذهب الحنبلي في نجد

## "دراسة تاريخية"

**عبدالرحمن بن عبدالله الشقير**
وزارة التعليم العالي - الرياض

يُعنى هذا البحث بدراسة تاريخ انتشار المذهب الحنبلي في نجد، منذ ظهور المذهب على يد مؤسسه الإمام أحمد بن حنبل حتى القرن الثاني عشر الهجري، الذي شهد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

ويتضح لدى دارسي تاريخ المذهب الحنبلي أن تطوره قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بثلاث مناطق رئيسة هي بحسب الترتيب التاريخي: بغداد والشام ونجد. وقد حظي تاريخ المذهب في بغداد والشام بدراسات كثيرة، لأن هاتين المدينتين تعدان من المدن المزدهرة علميًا واقتصاديًا وحضاريًا.

أما في نجد فقد كان ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب المؤيدة من الدولة السعودية الأولى، يعد مرحلةً جديدةً في تاريخ المذهب، كان لها أثرها فيما بعد كما سيأتي، وقد كان للتراث العلمي والأدبي الذي أثرته هذه المرحلة، مادة خصبة لدارسي المذهب من الباحثين المعاصرين.

وهذه الدراسة ترتكز في الأساس على مناقشة عددٍ من المسائل ذات الصلة بالتاريخ العلمي والاجتماعي في نجد، من خلال تاريخ دخول المذهب الحنبلي وانتشاره فيها وصلة هذا التاريخ بحركتها

العلمية، وفي الفترة من القرن الثالث الهجري حتى العاشر الهجري وما بعد هذه الفترة، تمت دراسة تاريخ المذهب دون توسع؛ نظرًا لوجود دراساتٍ مهمةٍ غطّت الجوانب العلمية لهذه الفترة(١). من أبرز هذه المسائل رصد مراحل انتشار المذهب الحنبلي التي ارتبطت ببغداد ثم بالشام ثم بنجد، وجهود أئمة نجد وعلمائها في دعم المذهب وإثرائه بمؤلفات العلماء، ونسخ الكتب وشرائها وتأسيس المكتبات الخاصة، كما يتناول هذا البحث الإشارة إلى المذهب الحنبلي في جزيرة العرب، وبخاصةٍ في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي، وجهود الملك عبدالعزيز في نشره.

## نشأة المذهب:

ينسب المذهب الحنبلي إلى الإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله الذهلي الشيباني، ويرجع نسبه إلى بكر بن وائل(٢).

ولد الإمام أحمد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، وقد قدمتْ به أمّه حاملاً من خراسان(٣)،

(١) انظر مثلاً: العثيمين، عبدالله بن صالح. نجد منذ القرن العاشر حتى ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مجلة الدارة، (١٣٩٨هـ)؛ الجهني، عويضة متيريك The History of Najd prior to the Wahhabis: The Ulama of Najd from the Sixteenth Century to the Mid Eighteenth Cen tury المطوع، عبدالله بن محمد البسام، أحمد بن عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها : العيسى، مي بنت عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد. سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط (وآخرين). - ط ٦ . - بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ج ١١ ص ١٧٨.

(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن. مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي . - ط ١.- القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص٣٥.

ونشأ في بغداد وطلب العلم فيها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة والحجاز واليمن والشام والجزيرة، وكتب عن علماء كلِّ بلد، وقد عني الإمام أحمد في بداية حياته بدراسة علم الحديث(٤).

وللإمام أحمد مصنّفات متنوّعة في الحديث والعقائد وغيرهما، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «المسند»(٥) وهو أعظم كتبه يضم ما بين ٢٨٠٠٠ - ٢٩٠٠٠ حديث، وقد حظي «المسند» باهتمام العلماء والباحثين، وصدر حوله عدد من المؤلفات والدراسات القديمة والحديثة(٦)، وله كتابُ «السنة»(٧) في التوحيد، وكتاب «الزهد»(٨)، وكتاب «الرد على الزنادقة والجهمية»(٩) وكتاب «علل

(٤) ابن الجوزي، المصدر السابق ص ٤٦. وقد أشار ابن الجوزي إلى كبار من لقي من العلماء وروى عنهم.

(٥) طبع «المسند» للمرة الأولى في المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٣هـ في ستة مجلدات بتصحيح محمد الزهري الغمراوي، وأعيد تصوير هذه الطبعة سنة ١٣٨٩هـ عن طريق المكتب الإسلامي ودار صادر ببيروت، ثم حققه أحمد محمد شاكر ونشر منه ١٥ مجلدًا بين سنتي ١٣٦٨-١٣٧٢هـ، ثم أتمه الحسيني عبدالمجيد هاشم في سنة ١٣٩٤هـ حتى ٢٢ مجلدًا وشاركه في الأجزاء الثلاثة الأخيرة أحمد عمر هاشم. كما حقق «المسند» من خلال عدد من رسائل الدكتوراه غير المنشورة بجامعة الأزهر بدءًا من سنة ١٤٠٤هـ، وصدر «المسند» مؤخرًا بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي.

(٦) انظر مثلاً: سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مج ١ ج ٢ ص ٢١٨، ٤١٩.

(٧) يوجد نسختان من كتاب «السنة» كبرى وصغرى. الكبرى طبعت بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ بتحقيق محمد حامد الفقي، والصغرى طبعت بالقاهرة أيضًا.

(٨) طبع كتاب «الزهد» بمطبعة أم القرى سنة ١٣٤٧هـ بتصحيح عبدالرحمن بن قاسم، ثم صور في بيروت مرات عدة، ثم صدر بتحقيق محمد جلال شرف، ويبدو أن كتاب «الزهد» لم يصل إلينا كاملاً، فقد اطلع عليه ابن حجر ووصفه بأنه «كتاب كبير، يكون في قدر ثلث المسند مع كبر المسند، وفيه من الأحاديث والآثار مما ليس في المسند شيء كثير». ابن حجر، من مقدمة تعجيل المنفعة.

(٩) حقق الكتاب وطبع مرات عدة، منها: تحقيق عبدالرحمن عميرة، دار اللواء بالرياض، ١٣٩٧هـ، وتحقيق محمد حامد الفقي، طبع بمكة المكرمة، وتحقيق =

الحديث»[10] وغيرها، كما نقل عنه تلاميذه «المسائل»، وهي مجموع مسائل الفقه التي أجاب عنها.

ومن أبرز الأحداث التي مرّت على الإمام أحمد، وكان لها أثرها الكبير في توجيه الأحداث في عصره ظهور المحنة أو القول بخلق القرآن التي دعا إليها المعتزلة ودعمها المأمون سنة ٢١٢هـ، وقد عارضها عدد من الأئمة، إلا أن الإمام أحمد اتخذ منهج الصراحة والوضوح في هذه القضية، وتعامل معها بصدق وإخلاص، لعلمه بخطورة أبعادها على الإسلام والمسلمين، فكان من أشدّ الناس صلابة وتمسّكًا بموقفه؛ لذلك نوظر مرات عدة، وسجن في بغداد وعُذِّب، ثم نقل إلى طرسوس محل إقامة المأمون، ولكنه أعيد إلى سجن بغداد وهو في الطريق بسبب وفاة المأمون سنة ٢١٨هـ. ولم ينته هذا الموضوع حتى تولى المتوكل (المتوفّى سنة ٢٤٧هـ)، وفي عهده تغير مجرى الأحداث؛ فقد أوقف أحداث المحنة، وأخمد رأي المعتزلة، ونصر السنة، واطمأنّ الناس، وشكروه على موقفه الكريم[11].

وقد كان الإمام أحمد أثناء هذه المدة يعقد دروسًا في الحديث والفقه[12]، وكان يحضرها عدد كبير من طلابه ويسجلون المسائل

= محمد مكي شفقة، مكتبة ابن الهيثم بحماة، ١٩٦٧م، وتحقيق سامي النشار، وعمار الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٠م (ضمن كتاب عقائد السلف)، وطبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة أيضًا، ١٣٩٣هـ. كما ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية واللغة التركية. صالحية، محمد عيسى. المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، القاهرة : معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٢م، ج ٢ ص٢٢٤؛ سزكين، تاريخ التراث العربي مج ١ ج ٣ ص ٢٢٣.

(١٠) طبع باسم «العلل ومعرفة الرجال» بتحقيق طلعت قوج بيكيت، وإسماعيل جراح أوغلي، ونشرته المكتبة الإسلامية بإستانبول، ١٩٨٧م.

(١١) موضوع المحنة مذكور بإسهاب في كتب التواريخ، وكتب السير التي ترجمت للإمام أحمد والكتب المصنفة في مناقبه، رحمه الله.
انظر مثلاً : ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد ص ٣٨٥-٤٨٧.

(١٢) يلحظ أن الإمام أحمد قد قطع التدريس قبل وفاته بثلاث عشرة سنة.

عنه، وقد بلغ عدد من نقل المسائل الفقهية عنه نحو مئتي شيخ(١٣).

وقد شكلت هذه المؤلفات نشأة المذهب الحنبلي؛ حيث إن الإمام أحمد «لم يصنف كتابًا في الفقه يعدّ أصلاً يؤخذ منه مذهبه»(١٤)، ومن كبار من جمع مسائله من تلامذته ابنه صالح (المتوفى سنة ٢٦٦هـ)، وابنه عبدالله (المتوفّى سنة ٢٩٠هـ)، وأبو بكر الأثرم (المتوفّى نحو سنة ٢٦٠هـ)، وإبراهيم بن إسحاق الحربي (المتوفّى سنة ٢٨٥هـ) وغيرهم. ويعدّ أبو بكر الخلال (المتوفّى سنة ٣١١هـ) من أبرز من جمع فقه الإمام أحمد، وله نشاط كبير في هذا المجال، ويوصف كتابه «الجامع لعلوم الإمام أحمد» أنه الكتاب الذي لفت الأنظار إلى فقه الإمام أحمد، وأنه بداية ظهور الانتساب إلى الإمام.

وقد استنبط فقهاء الحنابلة من بعد الإمام أحمد الفروع الفقهية في ضوء الأصول التي بنى عليها الإمام أحمد مذهبه التي ترتكز في الأساس على الكتاب والسنة وآثار السلف، وبذلك اتّسعتْ طرق الاستنباط. وقد كانت هذه الأصول سببًا في خصوبة الفقه الحنبلي، وأتاحت له كثرة المرويّ، وكثرة وجوه القياس والنظائر التي بني عليها، وكثرة عدد الأصول، والاستنباط بالمصالح المرسلة، والاستنباط بالذرائع، والاستنباط بالاستصحاب(١٥). ولهذا أصبح الفقه الحنبلي أحد المذاهب الفقهية الأربعة التي أجمع أهل السنة وعلماء الأمة على قبولها.

(١٣) رصد أسماءهم مع الإشارة إلى ما طبع من مسائلهم الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد في كتاب المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب .- ط ١ .- الرياض : دار العاصمة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ٢ ص ٦٢٣-٦٦٥.

(١٤) أبو زهرة، محمد. ابن حنبل : حياته وعصره - آراؤه، وفقهه، القاهرة : دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٣٤. ملحوظة : ينسب إليه «كتاب الصلاة» طبع مرات عدة، ويرى الذهبي أنه موضوع على الإمام أحمد. الذهبي، السير ج ١١ ص٣٣٠.

(١٥) أبو زهرة، ابن حنبل ص ٢٧٩-٢٨٠.

## مراحل انتشار المذهب الحنبلي:

عني دارسو تاريخ المذهب الحنبلي برصد أبرز الجهود التي بذلت لتوثيق مسائل الإمام أحمد الفقهية، ودراستها، ونشرها، حتى تكاملت مسائل المذهب. وقد تم تصنيف هذه الجهود إلى ثلاث مراحل بارزة بحسب الفترات الزمنية: المرحلة الأولى كانت في بغداد، والمرحلة الثانية في الشام، والمرحلة الثالثة في نجد. وهي على التفصيل(١٦):

**أولاً - في بغداد**، مرحلة النشأة والتكوين (من القرن الثاني حتى الخامس الهجري) :

في هذه المرحلة كان الإمام أحمد يعقد الدروس العلمية لتلامذته في بغداد، ويفتي مشافهة، وكان يكره أن يُدوَّنَ شيء من اجتهاداته ورواياته للمسائل، لذلك لم يؤلف كتابًا في الفقه من بين قائمة مؤلفاته، ولكنه ترك تلامذة علماء، سُمّوا الأصحاب، لكثرة ملازمتهم له، واعتنائهم بمسائله وسيرته.

بعد وفاة الإمام أحمد سنة ٢٤١هـ ظلّت مسائله تروى شفهيًا حتى ظهر جيل من تلامذة أصحابه، نشطوا لجمع مروياته وتدوينها، كان من أشهرهم بالإجماع أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال (المتوفّى ببغداد سنة ٣١١هـ)؛ فقد تفرغ لجمع علوم الإمام أحمد، وسافر من أجل ذلك إلى بلدان عدة للالتقاء بالعلماء الذين درسوا على الإمام أحمد، وحفظوا بعض مسائله، وصنف نتيجةً لذلك كتاب «الجامع لعلوم الإمام أحمد»، الذي يعدّ نقلةً نوعيةً في تدوين المذهب

(١٦) أبو زيد، المدخل المفصل ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٦ وقد قسم المراحل فيه إلى خمس مراحل. ابن دهيش، عبدالملك بن عبدالله. المذهب الفقهي العام لعلماء الحنابلة ومصطلحاتهم في مؤلفاتهم .- ط ١.- بيروت : دار خضر، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٧٣-٨٥، وفيه سبع مراحل. ويرجع سبب اقتصارها في هذا البحث إلى ثلاث مراحل لأسباب عدة، من أهمها ارتباط انتشار المذهب بثلاث مدن هي: بغداد، ثم الشام، ثم نجد. كذلك فإن مصطلحات تراجم علماء الحنابلة تقسم إلى ثلاثة: المتقدمين، والمتوسطين، والمتأخرين، كما أن اقتصار المراحل الزمنية إلى ثلاثة يسهل استيعابها بالإضافة إلى تناغمها مع ما ذكر في البلدان والتراجم.

الحنبلي، وقد دخل تاريخ المذهب بهذا الكتاب مرحلة جديدة، وتتابعت المؤلفات على هذا المنوال في المرحلة نفسها.

وقد شهدت هذه المرحلة تحرير المسائل وتصنيفها، وهي تعدّ امتدادًا طبيعيًا لمرحلة جمع المسائل وتدوينها. ومن أشهر المؤلفات التي صدرت في هذه المرحلة «المختصر» لأبي القاسم عمر بن الحسين الخِرَقي (المتوفّى سنة ٣٣٤هـ)، وهو يتكون من (٢٣٠٠) مسألة، وقد حظي هذا الكتاب بالقبول من علماء المذهب المتقدمين والمتأخرين؛ فكان مادةً غنيةً لمن جاء بعده، وتناوله العلماء بالشرح والدراسة ونَظْم مسائله شعرًا، حتى زادت عدد المؤلفات حوله على أكثر من ثلاثمئة كتاب.

ومن الممكن عد حادثة المحنة بداية انتشار المذهب؛ يذكر ابن الجوزي بسنده عن أبي الفضل قال: «بلغني أنه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع الشر، فقال المتوكل لصاحب الخبر: لا ترفع إليَّ من أخبارهم شيئًا وشُدَّ على أيديهم، فإنهم وصاحبهم من سادة أمة محمد ﷺ، وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه، ورفع علمه أيام حياته وبعد موته، أصحابُه أجلُّ الأصحاب. وأنا أظنُّ أنَّ الله - تعالى - يعطي أحدهم ثواب الصدِّيقين»[١٧].

ويعد دعم الخليفة المتوكل للحنابلة سببًا كافيًا لتحقيق انتشار المذهب، وربما كان تحرجّه - من تصيّد تحركاتهم عن طريق «صاحب الخبر» الذي يبثّ عيونه في أوساط العامة - حتى لا يوغر صدره ضدهم بسبب بعض الممارسات المتشدّدة في إنكار البدع[١٨]. وقد

(١٧) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد ص ٦٠٧.

(١٨) انظر نماذج من مواقف بعض عوام الحنابلة المتشددة في: محمود، محمد أحمد علي. الحنابلة في بغداد. - ط١. - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص١٧٠-١٨٨.

استمر ظهور الحنابلة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين. ويشير المقدسي (المتوفّى سنة ٣٨٠هـ) إلى امتداد انتشار المذهب في القرن الرابع ليشمل أصبهان، والريّ، وشهرزور وغيرها[١٩].

**ثانيًا - في الشام،** مرحلة الازدهار (من القرن الخامس حتى العاشر الهجري) :

انتقل ثقل الحنابلة وانتشارهم من بغداد إلى الشام وفلسطين في القرن الخامس الهجري، عن طريق أبي الفرج عبدالواحد بن محمد الشيرازي، ثم المقدسي، ثم الدمشقي (المتوفى سنة ٤٨٦هـ) الذي كان له جهود كبيرة في هذا المجال؛ فقد استطاع أن يخرج جيلاً من تلامذته على قواعد المذهب الحنبلي، كما بارك الله في ذريته وبرز منهم كثير من العلماء يعرفون ببيت ابن الحنبلي[٢٠]. ومنهم ابنه شرف الإسلام عبدالوهاب الذي أوقف مدرسة الحنبلية بدمشق[٢١]. وشهدت هذه الفترة بروز عدد من الأسر الحنبلية التي كان لها الأثر الكبير في إثراء المذهب بمؤلفات عظيمة، مثل أسرة آل قدامة، وآل تيمية، وبني عبدالهادي وغيرهم.

وقد تميّزت هذه المرحلة بالتوسع في التصنيف، ومناقشة الفروع المختلف فيها في المذهب، وإجراء دراسات مقارنة مع المذاهب الأخرى، لذلك ظهرت كتب الشروح المطّولة، والمتون وغيرها.

(١٩) المقدسي، محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ص ١١٢، ٢٩١، ٣٠٣، ٣١٢، ٣٥٣؛ تيمور باشا، أحمد. نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، تقديم محمد أبو زهرة ٠ - ط ١. - بيروت : دار القادري، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص ٨٣؛ دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر (د. ت) ج ١ ص ٤٩٤.

(٢٠) ابن رجب، عبدالرحمن بن أحمد. الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت : دار المعرفة، ج ١ ص ٧١.

(٢١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٥٣.

وقد شهدت هذه المرحلة ظهور موفق الدين بن قدامة المقدسي (المتوفّى سنة ٦٢٠هـ) الذي ذاع صيته من خلال كتاب «المغني» في شرح مختصر الخرقي، وكذلك له «العدة» في الفقه، وضعه للمبتدئين، و«المقنع»، وقد خصصه لمن تجاوز مرحلة المبتدئين، و«الكافي» وقد توسع فيه قليلاً على «المقنع»، وصارت مؤلفاته بذلك تعد العمدة في المذهب(٢٢).

كما شهدت هذه المرحلة بروز اسم تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الدمشقي (المتوفى سنة ٧٢٨هـ)، الذي يُعدّ من أبرز العلماء في عصره، وقد خدم المذهب بعدد كبير من المؤلفات والفتاوى، وقد تميّز بأنه دعا إلى فتح باب الاجتهاد وعدم إغلاقه، وكان له في هذا المجال اختيارات فقهية مشهورة(٢٣).

كما برز اسم القاضي علاء الدين علي بن سليمان المرداوي ثم الدمشقي (المتوفّى سنة ٨٨٥هـ) من خلال كتابه الشهير «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل» وهو من أئمة المذهب الحنبلي.

ومن مشهوري علماء الحنابلة في هذه المرحلة أبو النجا شرف الدين موسى بن سالم الحجاوي، المقدسي (المتوفّى سنة ٩٦٨هـ) صاحب «الإقناع» و«زاد المستقنع مختصر المقنع» وغيرهما. وهذا

(٢٢) ابن دهيش، المنهج الفقهي ص ٧٧.

(٢٣) رصد الوزير ابن هبيرة في «الإفصاح» المسائل التي انفرد بها ابن تيمية عن المذاهب الأربعة، أو تبع بعض مذاهبهم، وهي أكثر من عشرين مسألة، وتعد مسألة الطلاق من أشهر أقواله التي امتحن وسجن بسببها، ومن أبرزها قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق، وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة، وأن الطلاق المحرم لا يقع، وأن جميع أيمان المسلمين مكفَّرة. ابن منقور، أحمد بن محمد. الفواكه العديدة في المسائل المفيدة .- ط ٥. - السعودية : شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، - عن ابن هبيرة - ج ١ ص٤٩-٥١.

العالم الجليل اتصل به عدد من علماء نجد وأخذوا عنه، ذكر منهم ابن بشر : «أحمد بن محمد بن مشرّف، وأخذ عنه أيضًا ابنه يحيى، وزامل بن سلطان، قاضي بلد الرياض وغيرهم»(٢٤).

كما أن المذهب الحنبلي لم يجد طريقًا لأن ينتشر في مصر، ويبدو أن ذلك كان بسبب تأخره في الدخول إليها، بالإضافة إلى وجود أسباب سياسية ومذهبية، يقول السيوطي عن الحنابلة: «وهم بالديار المصرية قليل جدًا، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده، وذلك أن الإمام أحمد كان في القرن الثالث، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع. وفي هذا القرن ملك العبيديون مصر، وأفنوا من كان فيها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفيًا وتشريدًا، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة، ولم يزولوا منها إلا في أواخر القرن السادس، فتراجع إليها الأئمة من سائر المذاهب، وأول إمام من الحنابلة علمت حلوله بمصر هو الحافظ عبدالغني المقدسي صاحب العمدة»(٢٥)، ثم ذكر عددًا من علماء الحنابلة في مصر.

ويبدو أن هذا الركود قد امتد زمنيًا حتى القرن الثالث عشر الهجري، حيث يشير المؤرخ الجبرتي أن اثنين من علماء نجد - هما : عبدالله بن محمد بن بنيان، والقاضي عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم(٢٦) - قدما إلى مصر سنة ١٢٣٠هـ من قبل الإمام عبدالله بن سعود لمقابلة محمد علي، بشأن عقد الصلح الذي تم مع القوات المصرية بقيادة طوسون باشا، وأنهما أثناء إقامتهما دخلا الجامع

(٢٤) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ. - ط٤. - الرياض : دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ ج ٢ ص ٣٠٤.

(٢٥) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (د. ن) ١٣٨٧هـ ج ١ ص ٤٨٠؛ تيمور، نظرة تاريخية ص٨٢.

(٢٦) أشار إلى أسمائهما ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٣٧٨، ٣٧٩.

الأزهر، وسألوا عن أهل مذهب الإمام أحمد بن حنبل وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه، فقيل إنهم: «انقرضوا من أرض مصر بالكلية واشتريا نسخًا من كتب التفسير والحديث مثل: الخازن والكشاف والبغوي والكتب الستة المجمع على صحتها، وغير ذلك»[٢٧].

**ثالثًا - في نجد** : مرحلة النهضة الحديثة (في القرن العاشر الهجري وما بعده):

يُعدّ قيام الدولة العثمانية وامتداد سلطانها في العالم الإسلامي نقطة تحول عكسية في تاريخ انتشار المذهب الحنبلي، حيث تأثر سلبيًا حتى تضاءل شيئًا فشيئًا[٢٨].

ومن أهم أسباب ذلك تمذهب السلاطين العثمانيين بمذهب أبي حنيفة، والمذاهب في الغالب لا تنتشر إلا بدعم الحكام لها، ويؤكد ذلك أن الدولة العثمانية عندما تبنت المذهب الحنفي، برزت في ولاياتها ظاهرةُ التحول المذهبي بين العلماء، متجهين إلى اتباع المذهب الحنفي ونشره عن طريق التأليف، وتولي مناصب الفتيا، والقضاء، والتدريس.

أما في نجد فقد شهدت المدة من القرن الثامن إلى الثاني عشر الهجري انتشار المذهب الحنبلي فيها، وقد شهد القرن العاشر الهجري بروز عدد من العلماء الحنابلة الذين كان لبعضهم إسهامات علمية في إثراء الفقه الحنبلي، إلا أن مرحلة نهضة المذهب الحنبلي في العصر الحديث ارتبطت باسم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله (المتوفّى سنة

(٢٧) الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت : دار الجيل (د.ت) ج ٣ ص ٤٩٣، ٤٩٤.

(٢٨) دائرة المعارف الإسلامية ج١ ص ٤٩٤-٤٩٥.

١٢٠٦هـ)، وقد تزعم الإمام محمد بن سعود - رحمه الله - دعم الدعوة الإصلاحية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومناصرتها، حتى ارتبط اسم الدولة السعودية بالمذهب الحنبليّ الذي أصبح المذهب الرسميّ للبلاد، وقد امتازت هذه المرحلة بنشاط العلماء في نجد بالتنقيب عن مخطوطات الفقه الحنبلي ونسخها وجلبها إلى نجد، حتى أصبحت نجد من المراكز العلمية المهمة في دراسة المذهب، يؤيد ذلك وجود عدد من المكتبات الخاصة في نجد لعلماء نجديين في القرن الثاني عشر الهجري وما بعده، ومن أشهر المكتبات الخاصة في بواكير الدعوة مكتبة الشيخ المؤرخ محمد بن ربيعة العوسجي (المتوفّى سنة ١١٥٨هـ) الذي أضاف إلى مكتبته الخاصة مكتبة شيخه ابن ذهلان التي اشتراها من ورثته بعد وفاته[٢٩]. ومع انتشار الدعوة نشط سوق المكتبات في نجد، وكثرت حلقات العلم التي تُعقد في المساجد[٣٠].

وقد كانت في السابق مكتبات العلماء النجديين الخاصة توقف على مدارس الشام؛ نظرًا لكثرة الحنابلة هناك وقلّتهم في البلاد النجدية. وممن أوقف كتب الفقه الحنبلي من العلماء النجديين في القرن العاشر الهجري أحمد بن يحيى بن عطوة (المتوفّى سنة ٩٤٨هـ)؛ فقد أوقف مكتبته على مدرسة أبي عمر (العمرية) بالصالحية[٣١]، وأحمد بن إبراهيم بن أبي حميدان؛ فقد أوقف بعض كتبه على الحنابلة بالصالحية ودمشق[٣٢]. وفي المقابل تم نقل عدد كبير من الكتب إلى نجد بواسطة علماء نجديين، وكان بعضها قد نُقل إلى نجد بطرق غير شرعية؛ فقد تحدث ابن بدران عن المدرسة

(٢٩) ابن بسام، عبدالله بن عبدالرحمن. علماء نجد خلال ستة قرون. - ط ١. - مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٨هـ ج ٣ ص ٧٩٧.

(٣٠) ابن بسام، المرجع السابق ج ١ ص ٤٠.

(٣١) ابن بسام، المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٠.

(٣٢) ابن بسام، المرجع السابق ج ١ ص ١٥٤.

العمرية بالصالحية، وقال: إنه «كان فيها خزانة كتب لا نظير لها، فلعبتْ بها أيدي المختلسين، إلى أن أتى بعض الطلبة النجديين، فسرق منها خمسة أحمال جمل من الكتب وفرّ بها»[٣٣].

ويشير ابن بسام نقلاً عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أن المسؤول عن نقل هذه المخطوطات هو عبدالله بن عيسى المويس، قاضي بلدة حرمة بسدير، وأحد معارضي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، المتوفى سنة ١١٧٥هـ[٣٤]. ويرى ابن بسام أن طريقة ابن مويس هذه تُعدّ عملاً غير مشروع، والواقع أن من يتتبع أحوال الأوقاف بدمشق، وبخاصة أوقاف الكتب في تلك الفترة وما قبلها، يجد أنها معرّضة للسرقة من كل أحد، حتى من الناظرين على الأوقاف أنفسهم[٣٥] «بحيث أصبح ذلك الفعل سنة متّبعة عند المتأخرين من الدمشقيين»[٣٦]. وربما كان تقدير ابن مويس أن يحفظ الكتب التي أخذها من الضياع المؤكد، وإن كان ذلك لا يسوغ تصرفه، إلا أنه أخفُّ بكثير من أن يأخذها وهي في مأمن من أهلها.

كما صاحب نهضة الفقه الحنبلي في نجد نشاطُ حركة التأليف فيها، ونسخُ الكتب ووقفُها، بحيث برزتْ ظاهرة صناعة المخطوطات المحلية التي تُعدّ نادرة وذات شخصية مستقلة. ومع انتشار المطابع أوائل القرن الرابع عشر الهجري اتجه عدد من الأمراء والعلماء والتجار في أنحاء جزيرة العرب إلى تشجيع حركة نشر المذهب الحنبلي، من خلال طبع الكتب المحقّقة، والكتب المؤلّفة؛ مما زاد من انتشار المذهب في أرجاء العالم الإسلامي.

(٣٣) ابن بدران، منادمة الأطلال، بيروت : المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ ص ٢٤٤.

(٣٤) ابن بسام، علماء نجد ج ١ ص ٢٠٠ و ج ٢ ص ٦٠٤.

(٣٥) انظر مثلاً : ابن بدران، المرجع السابق ص ٢٣، ٣٠، ٥٢، ٥٨، ٨٧، ٩٥، ١١٢، ١١٦، ١١٩، ١٢٥، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٣، ١٧١، ١٧٤ وغيرها.

(٣٦) ابن بدران، المرجع السابق ص ١٨٨.

## تاريخ دخول المذهب الحنبلي في نجد وانتشاره فيها (من القرن الثالث حتى الثاني عشر الهجريين):

لم يُعرَفْ شخص بعينه ينسب إليه الفضل في دخول المذهب الحنبلي إلى جزيرة العرب نظرًا لقلة العلماء النجديين في فترة النشاط العلمي حتى القرن الرابع الهجري، ومن المؤكد أن الانقطاع العلمي بين علماء نجد وحواضر المدن الإسلامية المشهورة بكثرة العلماء في تلك الفترة، كان له أثره في مستوى التحصيل العلمي وتغيّر نمط الحياة بين أفراد المجتمع، يظهر ذلك من النسبة إلى المنطقة، فقد كانت نسبة علماء نجد في بدايتها تعرف باسم اليمامي، وقد نسب إلى اليمامة علماء ومحدثون برزت أسماؤهم حتى القرن الثالث الهجري(٣٧)، ثم ضعف الانتساب إلى اليمامة، وظهر مكانه بعد أربعة قرون تقريبًا النسبة إلى نجد(٣٨).

(٣٧) انظر : الأعظمي، المحدثون من اليمامة، بيروت : المكتب الإسلامي، ١٤١٥هـ؛ السليمان، خالد بن أحمد. علماء اليمامة في العصر الإسلامي الأول . - ط ١ . - الرياض : المؤلف ١٤١٦هـ. ويلحظ أنه تم التركيز في هذا البحث على من نسب صراحة إلى اليمامة أو نجد حتى وإن كان المنسوب إليها عاش في غيرها واستبعدت الأسماء المنسوبة إلى قبائل يمامية مثل : التميمي أو الباهلي وغيرهما؛ لأن تحركات كثير من القبائل ونزوح بعض أفرادها إلى خارج الجزيرة تم في صدر الإسلام أثناء الفتوحات الإسلامية المبكرة. كما يوجد عدد من النسب إلى أجزاء ذات صلة باليمامة أو نجد مثل : الخضرمي، نسبة إلى الخضرمة عاصمة الدولة الأخيضرية باليمامة، والحنفي، أشار السمعاني إلى أن عددًا من المشهورين حنفيون من أهل اليمامة وغيرهما.

كما يوجد عدد من النسب إلى جد أو إلى بلد لا تشترك مع قبائل اليمامة أو بلدانها إلا بتشابه الأسماء فقط مثل : الحوطي، والشقراوي وغيرهما.

(٣٨) أشار الذهبي إلى اسم عبدالرحمن بن عبدالله بن بختيار بن علي اليمامي (المتوفى سنة ٦٤٥هـ تقريبًا) ثم قال : «واليمامة من أعمال واسط». الذهبي، محمد بن أحمد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث وفيات ٦٤١-٦٥٠هـ)، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت : دار الكتاب العربي ص ٦٤. ولم أجد النسبة إلى اليمامي والمراد بها غير اليمامة المعروفة إلا في هذه الترجمة، ولم أطلع عليها في كتب المؤتلف والمختلف وكتب البلدانيات وكتب الأنساب وكتب اللغة المعروفة.

ومما يعطي صورة عن الأوضاع العلمية في نجد وضعف الاتصال بين علمائها وبين المراكز العلمية في الخارج أن الإمام الذهبي (المتوفّى سنة ٧٤٩هـ) درس الأوضاع العلمية في البلاد الإسلامية في عصره في كتاب «الأمصار ذوات الآثار»، ولم يذكر اليمامة أو نجدًا بشيء، وإن كان من المتوقع منه أن يذكر اليمامة ضمن مبحث: الأقاليم والمدن الكبار التي كاد يذهب منها علم الأثر بعد أن كان موجودًا فيها. لوجود علماء ومحدّثين كبار في اليمامة في صدر الإسلام. ويؤكد الذهبي في موضع آخر على خلوّ نجد من المحدّثين في عصره مرة أخرى، عندما أشار إلى نجد في كتابه «المشتبه»، ثم قال: «وما أذكر شيخًا نجديًا»[٣٩].

وقد درس بعض الباحثين مسألة تاريخ دخول المذهب الحنبلي في نجد، حيث يرى عبدالله العثيمين أن الطريقة التي دخل بها المذهب الحنبلي إلى نجد يكتنفها الغموض، ويقدم في هذا المجال بعض التحليلات المحتملة التي تؤصّل تاريخ المذهب الحنبلي في نجد. منها:

(٣٩) الذهبي، محمد بن أحمد. المشتبه في الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دلهي : الدار العلمية ١٩٨٧م ص ٦٣٢. ومن الطرائف الأدبية أن ابن ناصر الدين نقل هذا النص واستدرك عليه بقوله: «بلى تذكره يا أبا عبدالله، وهو الشيخ النجدي، صاحب يوم الزحمة، إبليس، لعنه الله» يشير إلى القصة المشهورة حول اجتماع قريش في دار الندوة بشأن رسول الله ﷺ. ابن ناصر الدين، محمد بن عبدالله. توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ج ٩ ص ٣٧، وكرر الاستدراك بنحوه ابن حجر، أحمد بن علي. في : تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق علي محمد البجاوي، مصر : المؤسسة المصرية للثقافة، ج ٤ ص ١٤٣٢. ولم يزد عليه على الرغم من عناية ابن حجر الفائقة في استدراك التراجم النادرة، ومن ذلك استدراكه ترجمة : قاضي صَوّل على سبعة مؤلفين، وقال: «ولم يذكر هذه الترجمة ابن ماكولا، ولا ابن نقطة، ولا ابن سليم، ولا الصابوني، ولا الفرضي، ولا الذهبي، ولا مغلطاي، فسبحانٍ الرزاق» ج ٣ ص ٨٥٠. وهذا يؤكد ضآلة أعداد العلماء المنسوبين إلى نجد، فضلاً عن اتصالهم بعلماء الشام ومصر وبغداد وغيرها. والذي يبدو أن قصة الشيخ النجدي إن صحت فإن نسبة الشيخ إلى نجد جاء من باب النسبة إلى جهة قدومه لا أنه لقب له.

أن نجد كانت من بين الأماكن التي لجأ إليها بعض علماء الحنابلة في بغداد، نتيجة للضغوط التي لاقوها خلال القرن الرابع الهجري، وأن وصولهم إلى نجد يعدّ البذور الأولى لنشر المذهب الحنبلي فيها(٤٠).

ويميل العثيمين في هذا النص إلى الوجود المبكر للمذهب الحنبلي في نجد، وأن وجوده الأول كان عن طريق العراق، ويؤيد هذا الرأي أن نجدًا كانت في تلك الفترة تعدّ ملاذًا للهاربين من السلطة أو المتخفّين عن الأنظار.

كما يعطي العثيمين رأيًا آخر، وهو احتمال أن أحد النجديين - أو فريقًا منهم - درس على عالم من علماء الحنابلة خارج نجد، ثم بدأ يدرس هذا المذهب بعد عودته إلى بلاده فانتشر فيها(٤١).

ويتفق مع هذا الرأي عبدالله المطوع وأحمد البسام؛ حيث يرى البسام: «أن الرحلات العلمية التي كان يقوم بها بعض الطلبة النجديين إلى الشام ومصر وغيرهما، ودراستهم على علماء الحنابلة هناك كان سببًا في تأثر هؤلاء الطلاب بمشايخهم وبالمذهب الذي يتبعونه، وتحمّسهم لتدريسه في بلادهم بعد رجوعهم إليها»(٤٢).

وهذا الرأي يشير إلى الوجود المتأخر للمذهب في نجد، لصلته بالشام ومصر، وهو يختلف عن الرأي الأول حول كيفية تأصيله، بحيث يرى العثيمين - في رأيه الأول - أن علماء المذهب المتقدمين هم الذين أدخلوا مذهبهم إلى نجد، وفي الرأي الثاني إشارة إلى أن النجديين هم الذين جلبوه إلى بلادهم نتيجة اتصالاتهم العلمية بالخارج.

(٤٠) العثيمين، نجد منذ القرن العاشر الهجري، مجلة الدارة، س ٤، ع ٣ (١٣٩٨هـ)، ص ٣٩.

(٤١) العثيمين، المرجع السابق.

(٤٢) البسام، أحمد بن عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد، رسالة دكتوراه غير منشورة، الرياض: كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٢هـ، ص ١٠.

والذي يبدو من خلال الأحداث أن البذور الأولى للمذهب الحنبلي في نجد ترجع إلى بغداد في القرن الثالث الهجري، حيث لقي الإمام أحمد عددًا من علماء اليمامة، وروى عنهم[٤٣]، كما كان للإمام تلامذة يماميون تلقّوا عن الإمام أحمد بن حنبل وعن أصحابه عددًا من المسائل مباشرة[٤٤]، ويؤيد هذا الرأي وجود عدد لا بأس به من العلماء النجديين في تلك الفترة في بغداد، وكانوا يُعرفون باليماميين آنذاك، وأكثرهم اشتهر بالحديث وعلومه. وهؤلاء العلماء ارتبطت اهتماماتهم بالحديث وعلومه[٤٥] الذي يعدّ الأصل الثاني من الأصول التي بنى عليها الإمام أحمدُ مذهبه الفقهي.

وبعد هذه الفترة دخلتْ نجد في تاريخ سياسيّ مظلم، كان له الأثر السيئ في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، حيث يحدّد بعضُ الدارسين منتصف القرن الثالث الهجري (٢٥٣هـ تقريبًا) بداية حكم الدولة الأخيضرية[٤٦] في اليمامة، التي نشرت الدعوة العلوية فيها بالقوة، وقد زار اليمامة في تلك الفترة ناصر خسرو، وأقام في الأفلاج - جنوبي نجد ويسميها فلج - أربعة أشهر، ووصف الأوضاع

(٤٣) من شيوخ الإمام أحمد من علماء اليمامة : أبو إسماعيل الحنفي اليمامي. ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد ص ٦١.

(٤٤) من تلامذة الإمام أحمد من علماء اليمامة : أبو محمد عبدالله بن محمد، اليمامي. ابن الجوزي، المصدر السابق ص ١٣٤؛ وعباس بن أحمد اليمامي، ابن مفلح، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين ج ٢ ص٢٧٥ ، وفيه تعليق المحقق على صحة النسبة حيث يرد في بعض المصادر باسم : اليماني.

(٤٥) انظر : الأعظمي، المحدثون من اليمامة؛ السليمان، علماء اليمامة في العصر الإسلامي الأول.

(٤٦) الأخيضريون : أسرة علوية تنسب إلى أبي عبدالله محمد بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون، وقد اتخذوا من الخضرمة عاصمة إدارية لهم، وقد امتدت فترة حكمهم على اليمامة حتى منتصف القرن الخامس الهجري. الشبل، عبدالله. الدولة الأخيضرية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع ٦ (١٣٩٦هـ).

الاجتماعية فيها، وأشار إلى انتشار الجوع والفقر والجهل، وعندما انتقل منها إلى اليمامة ذكر أنه «بها مسجد جميل، وأمراؤها علويون منذ القديم، ولم ينتزع أحد هذه الولاية منهم؛ إذ ليس بجوارهم سلطان أو ملك قاهر، وهؤلاء العلويون ذوو شوكة؛ فلديهم ثلاثمئة أو أربعمئة فارس، ومذهبهم الزيدية، وهم يقولون في الإقامة : محمد وعلي خير البشر، وحي على خير العمل»(٤٧). ويبدو أن الأخيضريين قد أسرفوا في سياستهم مع الرعية، مما اضطر كثيرًا من أهلها إلى ترك بلادهم والهجرة إلى البلدان الإسلامية الأكثر استقرارًا مثل: العراق ومصر وغيرهما(٤٨).

ولم يشر أحد من المؤرخين إلى أيّ فترة استقرار في ظلّ الحكم الأخيضري، ويبدو أن الآثار السلبية التي خلفها الأخيضريون لم تنته بانتهاء فترة حكمهم في اليمامة في منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠هـ تقريبًا)، وإنما استمرّتْ إلى منتصف القرن السابع الهجري، يؤيّد ذلك قلّة أسماء العلماء اليماميين خلال القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية(٤٩)، ويؤيد ذلك أيضًا بداية ظهور أسماء العلماء النجديين مقرونة بالاستيطان في العراق أو الشام.

(٤٧) خسرو، ناصر. سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب . – ط ٢ . – القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٤٨) يذكر ابن حوقل أن ربيعة ومضر جلوا إلى مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم (البحر الأحمر)، وصارت لهم ولتميم كالدار التي لم يزالوا بها وابتنوا بها غير منبر، ويذكر أيضًا أن الهاربين من جور الأخيضريين كانوا بالآلاف. ابن حوقل، أبي القاسم. صورة الأرض، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي (د.ت) ص ٣٨، ٥٨ . وينقل ياقوت عن ابن سيرين في تاريخه خبر انتقال أهل قُرّان – القرينة الآن شمال غرب الرياض – في مقاسماتهم وجدب أرضهم. الحموي، ياقوت. معجم البلدان، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي . – ط ١ . – بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٤، ص ٣٦٢؛ وانظر : الوشمي، صالح بن سليمان. ولاية اليمامة، الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٢هـ ص ١٧٣، ١٧٤.

(٤٩) لم أقف على اسم أي عالم يمامي (أو نجدي) في هذه الفترة.

وقد أفاد ابن ناصر الدين بعد ذلك بإشارة نادرة إلى : «الفقيه وليّ الدين سالم بن نافع بن رضوان النجدي الحنبلي، سمع بالبصرة من أبي عبدالله الحسين بن أبي الحسن بن ثابت الطيبي الضرير، في سنة خمس وثلاثين وستمئة»(٥٠).

ويفيد هذا النص الوجود المبكّر للمذهب الحنبلي في نجد، وهو وإن كان متصلاً بالبصرة، إلا أن النقلة الفعلية في نقل المذهب إلى نجد كانت من الشام، فقد بدأت تتردد أسماء النجديين في الشام منذ بداية القرن السابع الهجري أيضًا؛ إذ ذكر خمسة علماء وطلبة علم نجديين سجلت أسماؤهم ضمن سماعات في مجالس علمية بدمشق في العصر الأيوبي، وقد جاءت السماعات على النحو الآتي:

- عبدالحميد بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي، أبو محمد. سمع «الفوائد الحسان عن الشيوخ الثقات» لأبي بكر عبدالله بن محمد بن النَّعُّور (المتوفّى سنة ٥٦٥هـ)، وذلك في يوم السبت ٢١ المحرم سنة ٦٣٠هـ، ولم يُحدّد مكان السماع.

- كما سمع عبدالحميد النجدي - المتقدّم - كتاب «المئة الشريحية» لأبي محمد عبدالرحمن بن أبي شريح الأنصاري (المتوفّى سنة ٣٩٢هـ)، ومعه كتب أخرى في يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ٦٣٣هـ، وذلك في الجامع المظفّري بسفح جبل قاسيون. وحضر «المئة الشريحية» مرة أخرى بصفته مُسَمّعًا بالجامع المظفري في ١٧ رمضان ٦٨٤هـ.

- أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي، سمع كتاب «حديث عبدالله المخرّمي (المتوفّى سنة ٢٦٥هـ) وزكريا المروزي» بمنزل ابن هامل الحرّاني في سفح جبل قاسيون، في يوم الاثنين سلخ ربيع الآخر سنة ٦٦٤هـ.

(٥٠) ابن ناصر الدين، توضيح المشتبه ج ٩ ص ٣٨.

- عبدالرحمن بن محمد بن أحمد النجدي[٥١]، سمع «جزء حديث أبي الفضل محمد بن علي السهلكي عن شيوخه»، في يوم الجمعة في العشر الوسط من ذي القعدة سنة ٦٦٦هـ.

- محمد بن عبدالرحمن بن أحمد النجدي، سمع «ستة مجالس من أمالي القاضي أبي يعلى الفراء»، في يوم الخميس العاشر من رجب سنة ٦٧٣هـ بالجامع المظفّري بسفح جبل قاسيون.

- كما سمع «أمالي أبي يعلى» أيضًا إسماعيل بن ... محمد بن أحمد النجدي، في يوم الأربعاء الرابع من المحرم سنة ٦٨٩هـ وذلك بالمدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون.

كما سجّل سماعات في أوائل القرن الثامن الهجري، أكثرُها امتداد لما قبلها، منها :

- محمد بن أحمد النجدي - سبطته : زاهدة بنت عثمان بن محمد الحجار. سمع «كتاب الشكر لله تعالى» لابن أبي الدنيا (المتوفّى سنة ٢٨١هـ)، في يوم السبت منتصف رجب سنة ٧٠٦هـ، وذلك بمنزل أبي بكر بن أحمد بن عبدالدائم بن نعمة المقدسي بسفح جبل قاسيون.

- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أحمد النجدي، سمع «أمالي ابن بشران» لأبي القاسم عبدالملك بن محمد بن بشران (المتوفّى سنة

(٥١) ملحوظة : المعروف أن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد؛ هو البجدي وليس النجدي، وهو من شيوخ الإمام الذهبي ذكره في مشيخته، وقد ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة، كما أشار الرحالة ابن بطوطة إلى بعض الإجازات العلمية التي أخذها من علماء دمشق سنة ٧٢٦هـ، أثناء مروره بها وكان من بينهم: «الشيخ الإمام الصالح عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي» كما في طبعات: رحلة ابن بطوطة. وقد نبه عبدالهادي التازي إلى أنه البجدي وليس النجدي. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبدالهادي التازي، المغرب : أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ، ج١، ص ٣٣٦. فيبقى في الاسم المذكور في السماع شك حتى يثبت خلافه.

٤٣٠هـ) في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الأول سنة ٧١١هـ بالجامع المظفّري.

- كما سمع «أمالي ابن بشران» أيضًا : علاء بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي، ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي - يبدو أنهما أخوان - وذلك في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الأول سنة ٧١١هـ بالجامع المظفّري(٥٢).

يبدو من المجالس التي حضرها النجديون، أن بعضهم كان مقيمًا في دمشق مدةً طويلة على الأقل، بل إن بعضهم مثلاً بغداديون أو دمشقيون من حيث المولد والنشأة والوفاة، إلا أن هذا لا يقطع صلتهم بنجد؛ لأن مثل هذه التوجهات الشرعية قد تنتقل إليهم بالتعليم المتوارث، لذلك من المرجح أن يكونوا حنابلة، نظرًا لارتباط أكثرهم بالمدرسة الضيائية الحنبلية والجامع المظفّري، ويسمى أيضًا جامع الحنابلة، وكذلك ارتباط مجالسهم العلمية بسفح جبل قاسيون الذي يقيم فيه المقادسة الحنبليون، وفيه عدد من المدارس الحنبلية مثل الضيائية.

(٥٢) ليدر وآخرون، معجم السماعات الدمشقية : المنتخبة من سنة ٥٥٠ إلى ٧٥٠هـ - دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٦م - صفحات مختلفة لأن الكتاب تم تقسيمه بحيث وضعت قائمة الوثائق المخطوطة للسماعات في قسم، أما الفهرس التحليلي للأسماء المذكورة في مجالس السماعات ففي قسم آخر مرتبة بحسب حروف المعجم، وليس بحسب مجالس حضور السماعات.

وهنا أشعر بحق أنه من الضرورة التوقف عند هذا الكتاب الذي يعد نواة لمشروع ضخم يرمي إلى توسيع نطاق البحث في تاريخ دمشق الاجتماعي، بالإضافة إلى الأهداف العلمية التوثيقية للكتب، فنجد أن هذا الكتاب تضمن تحليل نحو ١٣٥٠ سماع، يغطي فترة قرنين من الزمان في العصرين الأيوبي والمملوكي، وقد تم رصد عشرة أسماء نجدية، لم تكن معروفة، وهذا عدد مشجع لمواصلة البحث في الحقل نفسه، حيث إن زيادة الفترة الزمنية حتى القرن العاشر الهجري مثلاً، مع التركيز على كتب الحديث وكتب الفقه الحنبلي لا شك أنها ستعطي نتائج إيجابية تسهم في زيادة التعرف على الصلات العلمية والاجتماعية بين نجد ودمشق في تلك الفترة، وتكشف جوانب من تاريخ نجد ما تزال غير واضحة المعالم.

وفي القرن الثامن الهجري أشار محمد بن أحمد الحسني المكي الفاسي (المتوفّى سنة ٨٣٢هـ) إلى بعض العلماء النجديين النازلين في دمشق في العصر المملوكي، منهم : «محمد بن عبدالرحمن بن أبي محمد النجدي الدمشقي، سمع من الفخر ابن البخاري «مشيخته» تخريج ابن الظاهري، وكان حيًا في سنة أربعين وسبعمئة، وكان يسكن بتربة الحسن بدار قبالة الأتابك»[٥٣].

والآخر : «أحمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن النجدي، القاضي بسويقة الركنية. سمع على الفخر بن البخاري «مشيخته» الظاهرية، وبقي إلى سنة أربعين وسبعمئة»[٥٤].

ويبدو أن هناك دوافع علمية واقتصادية، وربما أمنية، قد تجمّعت للفت انتباه علماء نجد على تركيز الاتصال بالشام.

ومن المرجح أن هؤلاء العلماء القلائل قد شكّلوا النواة الأولى لنقل المذهب الحنبلي إلى نجد، ومن ثم نشره في أنحاء جزيرة العرب فيما بعد؛ فقد كان المذهب مزدهرًا في الشام في تلك الفترة، كما أن أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري قد شهدا بروز اسم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (المتوفّى سنة ٧٢٨هـ) وذيوع صيته عند العامة والخاصة، مما يرجّح اتصال بعض علماء نجد بابن تيمية نفسه، وأخذ إجازات علمية عالية عنه، ونشر علمه في نجد. وفي حال كان هذا الترجيح مقبولاً فإنه يؤصل سرّ اهتمام علماء نجد الكبير بكتب ورسائل ابن تيمية.

وتظهر الوثيقة المشهورة باسم وصية صَبيح الموقّفة سنة ٧٤٧هـ[٥٥]

(٥٣) الفاسي، محمد بن أحمد. ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والأسانيد، تحقيق محمد صالح المراد، مكة المكرمة : جامعة أم القرى، ١٤١١هـ، ج ١ ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٥٤) الفاسي، المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦.

(٥٥) المبارك، عبدالعزيز بن فيصل. وصية صبيح، مجلة العرب ج ١ س ٢ (١٣٨٧هـ) ص٥٧.

انتشار المذهب الحنبلي في نجد في القرن الثامن الهجري في أوساط العامة.

وقد تزايد أعداد علماء نجد الحنابلة في القرن التاسع الهجري، وتردُ أسماؤهم مقرونة بالإقامة في الشام، حيث ذكر ابن عبدالهادي المعروف بابن المبرّد (المتوفّى سنة ٩٠٩هـ) أربعة من تلامذته كلُّهم نجديون وهم: فضلُ بن عيسى النّجدي، وقال عنه: «صاحبنا قرأ عليَّ «المقنع» وغيره، وكان ذا فضل ودين كاسمه، توفي سنة ٨٨٢هـ بالصالحية وجعلني وصيَّه، ودفن فوق الزاوية من جهة الغرب»(٥٦)، وقاسم النّجدي، وقال: «قدم علينا بعد الستين، وله فضل ومعرفة لا سيما بالفرائض»(٥٧)، وفقيهان آخران كلاهما اسمه: أحمد النّجدي(٥٨)، كما ذكر أيضًا رحمة النجدي وقال: «وُصف بالعَلَم، ببلاد نجد، وأنه قاض هناك»(٥٩). كما أشار العليمي إلى: «الشيخ داود بن أحمد بن إبراهيم بن شدّاد بن المبارك النّجديّ في الأصل، الرَبَعيّ في النسّب، الحمويّ في المولد، المعروف بالبلاّعي - نسبة إلى قرية تسمى البلاعة - الفرضي، توفي بحماة، ولعلّ وفاته قبل الخمسين والثمانمئة أو بعدها، واللهُ أعلم»(٦٠). ويُعدّ رحمةُ النّجدي أول نجديّ يُشار إليه بالعلم وهو في بلاده، وهذه الظاهرة أخذت

(٥٦) ابن عبدالهادي، يوسف بن الحسن. الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، القاهرة : مطبعة المدني، ١٤٠٧هـ، ص١١٢.

(٥٧) ابن عبدالهادي، المصدر السابق.

(٥٨) ابن عبدالهادي، المصدر السابق ص ١٥. ويرجح محقق الكتاب عبدالرحمن العثيمين أن أحدهما هو : أحمد بن يحيى بن عطوة.

(٥٩) ابن عبدالهادي، المصدر السابق ص ٤٠. ويرجح محقق الكتاب عبدالرحمن العثيمين أن المقصود عبدالله بن رحمة الناصري، المشار إليه في تاريخ ابن بشر ضمن حوادث سنة ٩٤٨هـ.

(٦٠) العليمي، عبدالرحمن بن محمد. الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٢هـ. ج ٢ ص، ٦٥٣، ٦٥٤.

شكلاً واضحًا في القرن العاشر الهجري. حيث تزايد أعداد العلماء النجديين في هذه الفترة، وكان من بينهم علماء كبار، مثلُ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن عطوة التميمي (المتوفّى سنة ٩٤٨هـ)(٦١)، ومحمد بن إبراهيم أبي حميدان (المتوفّى بعد سنة ٩٦٨هـ)، وهذان العالمان لهما إجازات علمية(٦٢).

وفي القرن الحادي عشر الهجري صارت الحالة العلمية أكثر وضوحًا، وكثر فيه عدد العلماء(٦٣)، ووصل إلينا بعض مؤلفات هذه الفترة. وكان من نتائج هذه الصلات العلمية أن صارت نجد بدءًا من القرن العاشر حتى ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب مركزًا من مراكز العلم، ووجد فيها المذهب المالكي، ولكن بحدود ضيقة(٦٤)، وكذلك المذهب

(٦١) يرى ابن بسام أنه أول عالم معروف في نجد، وتابعه على ذلك بعض المؤلفين، والواقع أن أحمد بن يحيى يصح أن يسمى أول عالم مشهور في نجد، فقد تتلمذ على كبار علماء عصره في المذهب الحنبلي، مثل: الشيخ يوسف بن حسن بن عبدالهادي (المتوفى سنة ٩٠٩هـ)، والشيخ علي بن سليمان المرداوي (المتوفى سنة ٨٨٥هـ)، والشيخ أحمد بن عبدالله العسكري (المتوفى سنة ٩١٠هـ). وقد ذكر ابن عيسى من مؤلفات أحمد بن يحيى «التحفة البديعة» و «الروضة الأنيقة» وغيرهما. وقد أوقف أحمد بن عطوة مكتبته على مدرسة أبي عمر الحنبلية، التي انتقلت إلى المكتبة الظاهرية بدمشق (مكتبة الأسد الآن). ابن عيسى، مجموع يتضمن مذكرات شخصية وفوائد في العلوم الشرعية والإنسانية، مخطوط، ص ١٣٧؛ ابن بسام، علماء نجد ج ١ ص ١٩٩.

(٦٢) ابن بسام، علماء نجد ص ١٩٩، ٧٦٩. وقد ذكر في كتابه ثلاثة عشر عالمًا في القرن العاشر الهجري. انظر: ص ١٥٤، ١٩٩، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢٦١، ٣٢٤، ٣٨١، ٤٠٥، ٤٩٢، ٧٦٩، ٧٩١، ٩٦٥. وفي الطبعة الثانية من كتابه الذي صدر باسم «علماء نجد خلال ثمانية قرون» زاد عددهم إلى ثمانية عشر عالمًا.

(٦٣) أشار ابن بسام إلى سبعة وعشرين عالمًا في القرن الحادي عشر الهجري. انظر: ص ١٥٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٨، ٢٥٢، ٢٦٣، ٣٠٩، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤٠٨، ٥٠٩، ٥٩٢، ٥٩٧، ٦١٦، ٦٢٠، ٦٨٦، ٧٠٩، ٧٢٥، ٧٣٧، ٧٨٨، ٨٤٢، ٨٥٦، ٨٧٦، ٨٩٣، ٩٤٢، ٩٥٨. وزاد عددهم في كتابه «علماء نجد خلال ثمانية قرون» إلى ثلاثين عالمًا.

(٦٤) من القليل النادر الذين ينتمون إلى غير المذهب الحنبلي من النجديين: الشيخ راشد بن خنين المالكي في الخرج؛ ويرى البسام بناء على ذلك أن الغالب على =

الشافعي(٦٥)، كما ظهرت في نجد بعض الطرق الصوفية(٦٦)، وهذه ظاهرة سلبية على الرغم من قلة متبعيها، وربما جاءت نتيجة الاتصال بالمتصوّفة في الشام، حيث وجد في نجد الطريقة النقشبندية والقادرية.

وهذا الاختلاف في المشارب إذا اجتمع في منطقة واحدة، ووسط مجتمع واحد، لا شك أنه سيتولد منه مناظرات وردود تغذي جوَّ المحيط العلمي، وستكون رافدًا مهمًا للتعمّق في دراسة المسائل المختلف حولها، مما يؤيّد وجود حالة علمية مزدهرة في نجد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولكن مع انتشار الدعوة

= أهل الخرج أنهم مالكيون، علماء نجد خلال ستة قرون، ص ١٨: ويرى بعض الكتاب أن ابن خنين حنفي المذهب (ابن بسام، الحياة العلمية في نجد ص ١٠٣ عن محمد بن إسماعيل)، بينما يشير العثيمين أنه لا يوجد في نجد أحناف (العثيمين، نجد منذ القرن العاشر الهجري، مجلة الدارة س ٤ ع ٣ «١٣٩٨هـ» ص ٣٩). وسياق الأحداث يؤيد أن ابن خنين كان مالكي المذهب لقرب الخرج من الأحساء التي كان المذهب المالكي منتشرًا فيها (ابن بسام، الحياة العلمية ص ١٠٣ عن : المطوع)، كما أن انتقال راشد بن خنين إلى قطر واتصاله بأهل العلم فيها (ابن بسام، ص ١٠٣ عن : عثمان بن سند) يؤصل سبب انتشار المذهب المالكي في قطر وبعض بلدان الخليج الأخرى، في حين لا نجد للمذهب الحنفي انتشارًا في بلدان الخليج كانتشار المذهب المالكي.

(٦٥) يشير ابن منقور إلى أن حسين بن عثمان بن زيد تحول من المذهب الحنبلي - بعد أن تبحر فيه - إلى المذهب الشافعي. ابن منقور، الفواكه العديدة ج ١ ص ٢٢٣. ولم يذكر شافعي نجدي غيره.

(٦٦) يشير إلى ذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن رسالة بعث بها إلى أهل الرياض ومنفوحة، يقول فيها : «وكذلك أيضًا من أعظم الناس ضلالاً متصوفة في معكال وغيره، مثل ولد موسى بن جوعان وسلامة بن مانع وغيرهما، يتبعون مذهب ابن عربي وابن الفارض، وقد ذكر أهل العلم أن ابن عربي من أئمة أهل مذهب الاتحادية» : مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب : الرسائل الشخصية، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ١٨٩. ويقول ضمن رسالة بعث بها إلى سليمان بن سحيم، في معكال - من أحياء الرياض الآن - «والناس يشهدون عليك أنك تروح للمولد وتقرؤه لهم وتحضرهم وهم ينخون ويندبون مشايخهم، ويطلبون منهم الغوث والمدد، وتأكل اللقم من الطعام المعد لذلك» (الرسائل الشخصية ص ٢٢٧).

المباركة اختفت ظاهرة التمذهب والابتداع في الدين، وحل محلّها مذهبُ السلف الصالح في الأصول، والمذهبُ الحنبليّ في الفروع، وقد دعمته الدولة السعودية الأولى حتى ساد في نجد، ومنها انتشر في أنحاء الجزيرة.

أما القرن الثاني عشر الهجري فهو يعدّ مرحلة من مراحل توثيق المذهب الحنبلي، وقد تقدّم الحديث عنه. وقد تميّز المذهب الحنبلي في هذه الفترة بوجود الدعم السياسي له، وذلك عندما اتفق الإمام محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١٥٧هـ على نشر الإسلام ومحاربة البدع المنتشرة آنذاك.

وعندما تبنّى أئمة وملوك آل سعود المذهب الحنبلي ونشره في الجزيرة العربية، اهتمت الدولة العثمانية بهذا البروز المفاجئ، وقد حاربت الدعوة في بداية الأمر حربًا إعلامية؛ حيث سميت الدعوة باسم الوهابية لتنفير العامّة منها، ساعدها على ذلك التقارير المشوّهة التي ترفع من قبل خصوم الدعوة، وأمام صمود الدعوة في وجه المدّ الإعلاميّ المناوئ، ومع ازدياد فهم الناس لحقيقة الدعوة، اضطرّت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار سلطاني سنة ١٢٢٤هـ يتضمّن اعتماد تغيير مصطلح (الوهابي) إلى (الخارجي)، وأن يستخدم هذا المصطلح في القرارات المرسلة إلى والي بغداد والشام(٦٧).

ومن وسائل انتشار المذهب الحنبلي كثرةُ المؤلفات والرسائل التي أعدّها علماء نجد لبيان ما عليه الدعوة المباركة التي خرجت من نجد، أو التي تناولت الردّ على علماء العراق والشام المناوئين للدعوة السلفية، ويرى طه حسين أن: «أولئك وهؤلاء كانوا يقرؤون كتب السلف في التفسير والحديث والتوحيد والفقه، يلتمسون الأدلة

(٦٧) وثيقة عثمانية برقم ١/٢-٦٩ ضمن أرشيف الوثائق بدارة الملك عبدالعزيز.

على آرائهم، وكان أولئك وهؤلاء ينشرون الكتب القديمة التي يرجع إليها في التماس الأدلّة والبراهين. وكذلك عادت الحياة القوية إلى مذهب أحمد بن حنبل الذي اتبعه النجديون، ونشرت كتب ورسائل كثيرة لابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربي كلُّه من هذه الحركة العقلية الجديدة»(٦٨).

## المذهب الحنبلي في جزيرة العرب:

ترد في بعض المصادر إشارات تؤكّد وجود المذهب في بلاد الحرمين الشريفين في وقت مبكّر، إلا أن وجود المذهب الحنبلي في الحجاز لا يعني انتشاره بالضرورة؛ لأن الأماكن المقدسة تعد من الحقول العلمية المناسبة لالتقاء جميع المذاهب الإسلامية(٦٩).

ومن المرجّح أن تكون نجد هي الموطن الأساسي للمذهب، ومنها انتشر في جزيرة العرب، ومن المرجّح أيضًا أن المذهب أخذ شهرته في نجد عن طريق الشام.

وقد كانت أجزاء المملكة العربية السعودية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري تنتشر فيها المذاهب الفقهية الأربعة؛ حيث يتّبع أهل (الأحساء) المذهب المالكي بشكل عام، تبعًا لانتشاره في الخليج، ويوجد المذهب الشافعي في (عسير)، وتوجد المذاهب الأربعة وبخاصة المذهب الشافعي في (الحجاز)، أما المذهب الحنبلي فيكاد ينحصر في (نجد)(٧٠). ومع أن للمذهب انتشارًا في بلدان مختلفة

(٦٨) طه حسين، الحياة الأدبية في جزيرة العرب، دمشق : مكتبة النشر العربي، ١٣٥٤هـ، ص٣٨-٣٩.

(٦٩) يشير الذهبي إلى أن العلم في الحرمين الشريفين كان مزدهرًا في العصر الإسلامي، ثم تناقص وضعف في القرن الثالث الهجري. الذهبي، محمد بن أحمد. الأمصار ذوات الآثار، تحقيق قاسم علي سعد . - ط ١ . - بيروت : دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٥٤، ١٥٩.

(٧٠) تيمور، نظرة تاريخية ص ٨٨.

مثل (النعاثل) بالأحساء التي يعد جميع أهلها حنابلة[٧١]، وبعض أهالي (عربستان) في الضفة الشرقية من الخليج العربي مثل: (لنجة) و (مغوة) و (بستانة) و (تاونة) وغيرها[٧٢]، إلا أن هذا الانتشار ضعيف، ولم يصاحبه نفوذ أو سلطة تدعمه.

كما أن للحنابلة وجودًا في عُمان، حيث يتركز وجودهم في منطقة جعلان، وكذلك لهم وجود في بعض قرى البريمي[٧٣]. وقد دخل المذهب الحنبلي إلى الكويت عن طريق الأسر النجدية التي نزحت إلى الكويت[٧٤]، وكذلك بسبب الصلات العلمية والتجارية. ويشير أحمد تيمور باشا كذلك إلى أن الغالب على الكويت وقطر والبحرين المذهب المالكي، ويقول: «وفيهما - قطر والبحرين - حنابلة من الواردين عليهما من نجد»[٧٥]. ويؤيد هذا النص إشارة تاريخية وردت في وثيقة عثمانية، بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣هـ تفيد أن عشيرتي العتوب والخليفات على المذهب الشافعي والمذهب الحنبلي[٧٦]. وقد كان ينتشر في قطر المذهب المالكي، ولكن يبدو أنه بتحول الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني (المتوفّى سنة ١٣٣١هـ) - مؤسس إمارة آل ثاني - من المذهب المالكي إلى المذهب الحنبلي، انتشر بسببه المذهب الحنبلي،

(٧١) الشيخلي، محمد رؤوف السيد طه. مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها، البصرة : مطبعة البصرة، ١٣٩٢هـ ، ج٢، ص ٢٩٣.

(٧٢) العصيمي، محمد دخيل. عرب فارس، الدمام : مطابع الشاطئ الحديثة، ١٤١٨هـ ،ص١٩، ٨١، ٩٥-٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٦.

(٧٣) لوريمر، دليل الخليج - القسم الجغرافي. الدوحة : مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر (د.ت) ، ج ٥، ص ١٧١٧.

(٧٤) لوريمر، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٣٠٧.

(٧٥) تيمور، نظرة تاريخية، ص ٨٩ ، وانظر فيما يخص دخول المذهب الحنبلي البحرين النبهاني، محمد خليفة. التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، بيروت : دار إحياء العلوم. - ط ١. - ١٤٠٦هـ، ص٤٠ ، حيث يرى أن حنابلة البحرين أصلهم من نجد.

(٧٦) انظر نص الوثيقة في: أبا حسين، علي. دراسة في تاريخ العتوب. مجلة الوثيقة، ع ١، س ١ (١٤٠٢هـ)، ص ١٠٣.

وربما ساعد على ذلك وجود أسر نجدية في قطر(٧٧). والمذهب الرسمي لقطر هو المذهب الحنبلي، وقد كان لحاكم قطر الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني جهود كبيرة في طبع كتب المذهب على نفقته الخاصة. كما تبنت عدد من الأسر الحاكمة في الخليج المذهب الحنبلي مثل القواسم في الشارقة ورأس الخيمة(٧٨)، والمعلا في أم القوين، والنعيمي في عجمان.

أما في الحجاز فعندما ظهرت مشكلة الحدود النجدية الحجازية كان من بين حجج الملك عبدالعزيز في تملّك تربة والخرمة أن جميع أهل القريتين بمن فيهم الأشراف حنابلة المذهب منذ عهد أسلافه(٧٩).

وعندما أذن الله بدخول الملك عبدالعزيز (الحجاز) وضمها إلى أجزاء المملكة، أعلن فيها اتباع مذهب الإمام أحمد في الفقه، ومذهب السلف الصالح في العقيدة(٨٠)؛ فقد ورد ضمن خطبته في (الحجاز) قوله: «إننا لم نطع ابن عبدالوهاب ولا غيره إلا بما أيّدوه بقول من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ. أما أحكامنا فنسير فيها طبق ما اجتهد فيه الإمام أحمد بن حنبل»(٨١).

ومن أجل ذلك تولى الملك عبدالعزيز مهمة نشر الفقه الحنبلي من خلال تشجيع حركة التأليف فيه، وإحياء مخطوطاته، والتزم بذلك، وأنفق عليه من ماله الخاص. وفي كتب العقيدة والتفسير نشر كتب

(٧٧) لوريمر، دليل الخليج - القسم الجغرافي، ج ٦، ص ١٩٨٨، ١٩٩٣.

(٧٨) لوريمر، المرجع السابق، ج ٧، ص ٢٣١١.

(٧٩) الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥م، ص ٣١٨.

(٨٠) الدمشقي، محمد منير. نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٩هـ، الرياض: مكتبة الإمام الشافعي - تصويرًا عن الطبعة الأولى - ١٤٠٩هـ، ص ٤٣٤.

(٨١) جريدة أم القرى، العدد الأول بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ.

السلف الصالح دون التقيد بمذهب معين، فقد نشر كتاب «التوحيد» لابن خزيمة الشافعي، و «تفسير القرآن» لابن كثير الشافعي، و «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الطحاوي الحنفي.

وقد اتبع الملك عبدالعزيز مناهج متنوعة لنشر المذهب الحنبلي غير طباعة الكتب(٨٢)، حتى وصف جلالته بأنه أعاد لمذهب الإمام أحمد مكانته التي كان عليها في القرنين الثاني والثالث الهجريين في بغداد، وفي القرن الخامس الهجري في الشام(٨٣).

وقد زاد عدد العلماء الحنابلة بسبب ذلك، بل تحوّل بعض العلماء الأحناف إلى حنابلة. وفي هذا الخصوص يذكر محمد منير الدمشقي قصة طريفة جرت للشيخ أبي بكر بن محمد خوقير، حول تحوله المذهبي؛ فقد تفقه أولاً على مذهب الإمام أبي حنيفة تبعًا لمذهب آبائه وأجداده، ثم أشار عليه أستاذه الشيخ عبدالرحمن سراج الحنفي - مفتي مكة - وعلى آخرين معه من طلبة العلم، أن يتفقهوا في مذهب الإمام أحمد، ليكون في علماء الحجاز من يصلح أن يتولى منصب الفتوى في هذا المذهب، بدلاً من علماء نجد الذين كانوا يتولّونه سابقًا.

ويرجع سبب ذلك إلى موقف أشراف مكة من علماء نجد؛ فقد كانت الحكومة العثمانية، وأمراء الحجاز من الأشراف، لا يمكّنون علماء نجد من تولّي مناصب في مكة(٨٤).

(٨٢) للتوسع انظر: محمد منير، نموذج من الأعمال الخيرية، ص٤٣٤؛ الثقفي، مفاتيح الفقه الحنبلي (د. ن) ١٤٠٢هـ، ج٢، ص ٤٢٨.

(٨٣) ابن بلبان، محمد بن بدر الدين. أخصر المختصرات في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومعه حاشية لعبد القادر بن بدران، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، بيروت : دار البشائر الإسلامية (د. ت) ص٧٥؛ أبو زهرة، ابن حنبل، ص ٣٠٨-٣٠٩؛ أبو زيد، المدخل المفصل، ج١، ص٥٠٧.

(٨٤) الدمشقي، محمد منير. نموذج من الأعمال الخيرية، ص ٩٨.

ومن المهم الإشارة إلى جهود بعض التجار والموسرين الذين أسهموا بطباعة ونشر كتب الفقه الحنبلي قبل دخول الملك عبدالعزيز الرياض، ثم جهود الأمراء والتجار الذين تأثروا بطريقة الملك عبدالعزيز وساروا على نهجه. كما أنه من المهم الإشارة إلى دور أسرة آل ثاني حكام قطر في نشر المذهب الحنبلي ونتيجة لهذه الجهود داخل الجزيرة العربية نشط المذهب خارج الجزيرة في العراق ومصر والشام، من خلال جهود العلماء الذين تعاملوا بإيجابية مع هذه التطورات التي شهدها المذهب.

ويذكر ابن بدران الدمشقي (المتوفّى سنة ١٣٤٦هـ) أنه كان يمضي عليه الشهور والأعوام، ولا يرى أحدًا يسأله عن مسألة في مذهب الإمام أحمد لقلة أهله في بلاد الشام. ويقول في سبب تأليف كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل»: «ولولا أملي بنفع سكان جزيرة العرب من الحنابلة لما حركت - فيما رأيت من الفوائد - قلمًا ... نعم إن كثيرًا من سكان الجزيرة وخصوصًا أهل نجد - أكثر اللهُ من أمثالهم - يبذلون الآن النفيس والنفيس (كذا) بطبع كتب هذا المذهب، ويحيون رفات الكتب المندرسة منه، فأحببت مشاركتهم في هذا الأجر، وأقدمت على ذكر الكتب المشهورة، ليتنبّه أهل الخير إليها، فيبرزونها مطبوعة طبعًا حسنًا»(٨٥).

ويشير محمد رشيد رضا إلى أنه لم يقدم على طباعة كتابي «المغني والشرح الكبير» إلا من أجل مشاركة الملك عبدالعزيز ضمن جهوده لنشر المذهب الحنبلي؛ «لأن التجار لا يقدمون على طبع اثني عشر مجلدًا في الفقه لأحد فقهاء مذهب الإمام أحمد بن حنبل، مع قلة الحنابلة في الأمصار، وفقرهم، وقلة من يعلم أن هذا الكتاب هو

(٨٥) ابن بدران، عبدالقادر. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، صححه وقدم له وعلق عليه عبدالله بن عبدالمحسن التركي. - ط ٣. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ، ص ٤٢٣.

في فقه الإسلام في جملته، لا فقه الحنابلة وحدهم»(٨٦).

ونظرًا لعظم قدر كتاب «المغني» في المذهب فقد عُني الملك عبدالعزيز بنشره على نفقته الخاصة، وحرص على إيصاله إلى علماء الحنابلة داخل الجزيرة العربية وخارجها، لذلك أصدر توجيهاته إلى السيد محمد رشيد رضا - ناشر الكتاب - بتوزيع كميات منه في الشام ونابلس(٨٧)، حيث يوجد هناك بيوتات حنبلية.

وبعد وفاة الملك عبدالعزيز واصل أبناؤه الملوك والأمراء جهودهم في نشر المذهب وفق الطريقة التي عمل بها جلالته، كما كان لجامعات المملكة العربية السعودية جهودها الكبيرة في دراسة المذهب الحنبلي، وتحقيق مصادره في الفقه وأصوله، من خلال مراكز البحث العلمي، وكذلك تشجيع طلبة الدراسات العليا في هذا المجال.

وفي الوقت الحاضر، اتَّخذ طابعُ دراسة الفقه المقارن - بشكل عام - في كثير من الدراسات الأكاديمية الحديثة.

(٨٦) خاتمة طبع كتابي المغني والشرح الكبير، أشرف على تصحيحه السيد محمد رشيد رضا، القاهرة : مطبعة المنار، ١٣٤١هـ، ج ١٢، ص٧١٢.

(٨٧) وثيقة من السيد محمد رشيد رضا إلى الشيخ محمد بن مانع بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٤١هـ. مجموعة ابن مانع، إدارة الوثائق بمكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.